

رسائل ثقافية

لبَنان مِن رياض ن. الرئيس

(٩) - بانني محامي الشيطان ، وظفنتي الكنيسة عندها . فالشيطان نفسه اليوم قد هرب من اورشليم .

« ليس عندنا نقد ، كل النقاد مزيفون » . هذه هي التهمة .

وهل عندنا ادب ؟ هذا هو السؤال . كل ادبنا دعي وامي وجاهل وسطحي . كل ثقافتنا قتات من هنا وهناك . معلومات سطحية تجمع من بقايا موائد المقامي ، يحرثها انصاف المثقفين ، ويتبجح بها الاميون . وكتابنا جماعة من المغرورين ، يكاد سحر الاسم المطبوع يقضي على القليل الذي عندهم من امكانات . فايهم يتقبل النقد ؟ بل من منهم اذا لم تحمل الصحف اليه المباحر ، يقبل ان يقال عن نتاجه بانه عادي او انه لم يشل الزير من البير ، او انه (من قبيل التشجيع) يعد بالخير ، اذا ... و« اذا » هذه تعني انه يجب ان يتطور ويعمل بجد اكثر ، وان يكون اكثر ثقافة وتجربة ونضجا . واذا تجرأ ناقد من النقد ، على قلتهم ، واستعمل مقاييس النقد الصحيحة ، فقيم الامور كما يجب ان تقيم ، اتهم بانه كاتب فاشل تحول الى ناقد .

القضية لم تعد قضية نقد ، بقدر ما هي قضية نتاج يفتر الى تقييم صحيح . ليس عندنا نقاد متفرغون ؟ ولكن ، نكاد نقول ، اين النقاد المتفرغون في العالم كله ؟ الناقد الكبير اليوم ، والمحسوب على التفرغ ، هو الكاتب او الصحفي او الجامعي او المدرس الذي يعمل في النقد . فالنقد لا يعيش وحده ، ولا يعيش على انتاج هزيل كانتاجنا .

ومجال النشر ، على تضارب ومختلف مستوياته ،

اغتيال النفاق كل شيء . واحتمى الارهاب في كنفه ، وتعلق المثقفون والادباء باهدابه ، وقضت السياسة على البقية الباقية من المواهب الواعدة ، ولم يعد من الممكن اراقة ماء الوجه اكثر من هذا . واصبح الانسان المثقف ، والكاتب الموهوب ، والرجل الخلاق ، والفنان الاصيل ، غريبا عن اورشليم . وانهارت جدران اورشليم كما انهارت جدران اريحا . ولم يعد الدخول الى ملكوت الادب يحتاج الى اكثر من صك غفران من وزير او مدير بنك او محرر في جريدة . فالوزير يقدم الدعم الرسمي ، والمدير الدعم المادي ، والمحرم الدعم الدعائي الصحفي . فنجد ان ماسوني الادب قد احاطوه من كل جانب ، وعزفت الابواق في حفلات الكوكيتيل والندوات ، وقرأت معلقات المديح ، والصقت الصور في الصحف ، ومنحت الجوائز : للاقل موهبة ، والاقل اصاله ، والاقل خبرة ، والاقل جرأة ، انما الاكثر نفقا ، والاسمك جلدا ، والاكثر امكانية في اراقة ماء الوجه . ولم تعد جدران اريحا تحتاج الى من يدور حولها سبع مرات او سبعة ايام او سبع سنوات لتنهال . فالرب لم يعد معنا ، واورشليم لم تعد اورشليم .

ومتى كان الرب مع الادب والفكر والثقافة عندنا ؟ بل متى كانت مؤسساتنا ، من دولة وبنوك وصحافة ، مع ما نتبجح به باستمرار ، بل ما عندنا فعلا من غنى ثقافي تراكم عبر تيارات التاريخ ؟ بل متى كان تلامذة الرب - القراء - شاعرين بالازمة ، عارفين الفرق بين الحنطة والزوان ؟

عهد الاقنعة يجب ان ينتهي ، ولا بد من ان تسيل بعض الدماء . لذلك ليس هناك مجال للاعتذار ، لا قبل ولا بعد . فهذه المرة لن ادعي - كللرة الماضية التي كتبت فيها « رسالة لبنان » (« حوار »

فسبح لاستيعاب مختلف المحاولات والتجارب ، مهما بلغت من التطرف او الطرافة او البعد عن سطحية الجماهير وعقلية الصحافة السيارة .

فلبنان ، الذي يوجد فيه اكبر عدد من الصحف والمجلات ووسائل النشر والطباعة في العالم العربي كله ، نجد انه يفتقر في مستواه ومحتواه الى المستوى الثقافي والفني الذي يرجى من هذا الفيض والزخم كله ، بل الى ما يمكن ان يخلقه وضع كهذا ، من تيارات تعود على حركة الثقافة والفكر بالخير . ما زال النفاق سيد الموقف ، وما زال الدجل كمغارة علي بابا ، يفتح ويغلق الابواب بكلمة السحر .

ولعل النشاط الثقافي الذي عرفه لبنان خلال موسم الصيف ، على تباينه واتساع مجالاته ، فيه دليل على ان القضية ما عادت قضية ثقافة او سمعة او مستوى ، بقدر ما هي قضية « علاقات عامة » بالدرجة الاولى ؛ وهنا تفتح وتغلق مغارة علي بابا من جديد .

الموسم كان موسم مهرجانات بالطبع . ولعل مهرجانات بعلبك هي الاشهر والاقدم وصاحبة الباع الاطول في الفن - وفي العلاقات العامة . فقد كان ما استورد من فن من الخارج هو ما يفتقره لبنان ، لبنانيا وعربيا ، من فن وثقافة . فكانت الكوميدي فرانسيز ، وكانت الرويال باليه ، وكانت السمفونية الامريكية ، وكان الكورال النمساوي . جاءت كل هذه الفرق كنوع من تذكير اللبنانيين ، اكثر من التعويض عليهم ، بما ينقص بلادهم في مجالات الفن الحقيقي ، على الرغم من ان هذه الفرق لم تعط ولم تأت باحسن ما عندها ، بل وما يتفق وسمعتها في بلدانها الاصلية .

اما عندما قدمت مهرجانات بعلبك فنا محليا فقد تبدى النقص الثقافي هنا اكثر واكثر - ان كان هذا المستوى هو الذي يمثل ثقافتنا حقاً . حفلات الفوكلور اللبناني التي كانت صباح بطلتها ، مع وديع الصافي وفرقة الانوار وفرقة مهرجانات بعلبك ، كانت هزيمة فظيعة لاصول الفوكلور وذكره ، ولتراث الفن الشعبي اللبناني الحقيقي . الاوبريت الغنائية ليست اوبريت ، والشعر

الفناني ليس غنائيا ، ومحتواه ليس اكثر من غلاطات تجمعت في الفاظ ، ما ابعد اهل القرية الحقيقيين عنها . والرقصات ، اختلط فيها الايقاع الروسي ، والاسلوب الارمني ، واللغة القوقازية ، تشاركها موسيقى لم تعد معروفة الهوية ، حتى حملت كل الصفات الا الصفة اللبنانية الاصلية . هل استنفد الفوكلور ؟ ربما . انما ما قدم في بعلبك ليس فوكلورا .

وجاءت مسرحية « الازميل » لانطوان معلوف ، الذي نال ثلاث سنوات متتالية جائزة جمعية اصدقاء الكتاب للمسرحية ، دليلا آخر على اننا ما زلنا في عصر مسرح يوسف وهي في الثلاثينات ، وان ما قدمه منير ابو الدبس في بعلبك لم يكن الا تكرارا مأساويا للدراما التقليدية . فالمسرحية اصلا لا تصلح للتمثيل ولا تصلح لبعلبك ، فضلا عن نفور الجمهور التقليدي من المأساة المسرحية المتعلة .

طبعا لم يتصد لهذه المهرجانات بالتقييم الفني الصحيح ، الا القلة من الكتاب الذين عرفوا المسرح الحقيقي وعرفوا اصوله . اما الباقون فاكثفوا ببدء العلاقات العامة في مغارة علي بابا .

وكانت فيروز والرحبانيان في الارز مع « بيع الخواتم » ، اهم جزء في موسم المهرجانات . وفيروز هي فيروز ، اي الضمانة اللبنانية الفنية الوحيدة . غير ان فيروز لم تعد وحدها تكفي . اكل البرد ووعورة الطريق وصعوبة الوصول الى الاحتفال نصف اعصاب الجماهير ، وبقي النصف الآخر موزعا بين الاعجاب بفيروز والرحبانيين ، وبين الاسفاق من ان الفوكلور اللبناني قد توقف هنا وانتهى . فالشعور بكسر الطوق قد بلغ مداه ، ولم يعد هناك مجال للاجترار بعد اليوم .

وجاءت اهدن ، لتكون المركز الثالث لمهرجانات المسرح هذا الصيف . وكان « عرس الدم » للوركا تقليديا وبعيدا عن روح لوركا الاصلية . اما ارشانا ، فلعل ما حصل فيها كان احسن ما حصل للمسرح المستجد في لبنان . فقد كانت « كوميديا الاخطاء » ، في اطارها الشرقي ، جيدة التمثيل وجيدة التفاعل مع الجمهور ، ربما لان جمهور المسرح في لبنان ما زال اميل الى

والارهاب هذا ، بالرغم من شيء اسمه مواطنة الانسان في الدولة وحقه في التعبير عن رأيه ، قد اصبح يتعدى على بديهيات التسليم باسبط قواعد الحرية الفكرية . الاديب صاحب النفوذ ، ومالك القلم الثري ، والكتابة الاكثر اغراء (ليس الاكثر جالا - ولا داعي ان نقول موهبة) ، هم اليوم اسياد الموقف .

في الصيف كله لم يصدر كتاب واحد يستطيع الناقد ان يشير اليه ، او يحمله بفخر . وفي الصيف كله كانت « البوار » هي الكلمة السائدة . كان المواهب قد فرغت ، او ان الناس قد ناموا خارج اسوار اورشليم . ولعله اتى مع البوار جو من الحزن والحياة . لقد اصيب الفن الادبي بالحمل . لم يعد الشعر سيد الكلمة ، فمجلة « شعر » قد ماتت ، ويوسف الخال يعد جنازتها في عدد اخير . لم تعد الرواية هدف الخلق المركب الاسمي ، ولم تعد القصة القصيرة حقلًا للتجارب الناضجة الغريبة . لقد عم الجفاف .

ومع الجفاف انتحر الفنان المغامر ، صاحب التجربة الاصلية . لقد انقى بنفسه من الطابق العاشر لعماره شركة للعلاقات العامة . ولم يله عابر سبيل من مقهى مجاور . حتى السامري قد اختفى .

واليوم لو قتل عشرة ادباء حقيقيين في لبنان (وهذا رقم مبالغ فيه) لما سالت نقطة دم واحدة ، ولما تحرك وزير او مدير او زميل من كرسيه . رياح البوار اقوى ، وجفاف الحماسين اقسى ، وسحر المغارة ابقى واجدى .

واصبحت اورشليم اكرام آثار ، ولم يعد ملكوت الادب فيها يستحق صك غفران ناصع البياض . فقد كثرت الاجساد السمكية ، ولم يعد يمكننا لياه الوجوه ان تراق اكثر . وتحول الرب الى دليل سياحي .

ومن آمن به ، ومات ، فسيحيا !

الكوميديا منه الى المأساة ، وربما لان الترجمة الضائعة بين الفصحى المحكية والعامية المكتوبة التي قام بها انسي الحاج لشيكسبير قد اكسبت هذه المسرحية الكثير من الحيوية ؛ بل لعلها اكدت عناصر نجاحها ، بقدر ما اكسبته مزيدا من العداء من قبل المتطرفين من انصار الفصحى ومن انصار العامية . غير ان المسرح لم يكن كل شيء . فقد سبقه محاولة عرض فيلم سينائي ، هو « الاجنحة المتكسرة » لجبران ، كان عبارة عن فضيحة مأساوية . فضيحة لان اصحاب الفيلم لم يتورعوا عن عرضه ، وفضيحة لان الممثلين الذين اشتركوا فيه قد انتحروا ، ومنهم من كان يعد بالكثير . ولعله ليس من الضروري ان يطيل المرء الحديث عن هذا الفيلم ، لولا انه جاء يدعي تمثيل صناعة السينما اللبنانية ، ولولا حزننا على قصة جبران وامكانات فضال الاشقر ، بطلا الفيلم .

لقد تخلل عرض هذه المشاهد الثقافية ، بالطبع ، الشريط الدائم للحياة الفكرية في لبنان . وسائل النشر ما زالت تعيش في فوضاها المعتادة . الصحافة ما زالت مهنة عاجزة عن ان ترفع من مستوى الحرر العامل ، وان تستقطب القلم النظيف الخلاق . لم تتحول الصحافة الى صناعة ، الا في المجال الآلي ، حيث اصبحت الطباعة عملا تقنيا دقيقا . اما المستوى ، واما المضمون ، فحدث ولا حرج . ودور النشر ، ما زالت دورا للتجارة بالورق المطبوع ، وما زالت تتخبط في فوضاها وعجزها المالي عن ان تكافئ المؤلف وان تتوسع في خدمته . اما المعارض ففي الصيف ، كما يبدو ، يستريح الفنان بانتظار الحريف ، ويستلقي متطلعا الى الجدران الفارغة حوله في الفنادق والمقاهي وبعض الاماكن القليلة جدا المهيئة للعرض . اما من هو الفنان صاحب الحظ الاوفر في احتلال هذه الجدران ، فذلك ايضا من سحر المغارة .

غير ان الدليل الامم عن تحلي الرب عن اورشليم ، يتجلى في ظاهرة ، لم تعد ظاهرة ، هي اسلوب الارهاب الفكري الذي يعاني منه المثقف والاديب ، عن طريق الزايدة في المواقف الاكثر عربية او الاكثر لبنانية ، وليس الاكثر صدقا او حقيقة .